مطبوعات حديثة

النثر العربي في القرن الرابع للهجرة

— بقلم —

الدكتور زكي مبارك

— * —

رسالة أنشأها الدكتور زكي مبارك باللغة الفرنسية وقدّمها الى جامعة باريز .

بحث فيها عن خصائص النثر في القرن الرابع للهجرة فأشار الى محاسن هذا النثر والى معايبه وحاول ان ينسلخ في مباحثه من تأثير علماء المشرقيات .

القرن الرابع في نظر الدكتور انما هو من اعظم القرون شأناً فان للغة فيه خصائص لم تكن لها في العصور السالفة ، من هذه الخصائص اجتهاد الكتّاب في تنميق كتاباتهم بمحاسن الشعر فان قدماء الكتّاب لم يخطر ببالهم ان يقلّدوا الشعراء ، اما كتّاب العصر الرابع فقد قلّدوهم مقتصدين في تقليدهم دون شيء من الاسراف وانما الاسراف وقع من قبل خلفائهم في العصور اللاحقة .

ومن خصائص النثر في القرن الرابع التقفية والسجع وفي هذا العصر ظهرت المقامات وان لم تكن المقامات من وضع العصر الرابع وانما كانت من اقتباسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد ذكر الدكتور في رسالته انه نبّه على أضاليل في تاريخ ادب العرب من جملتها وضع البديع والبيان وانشاء المقامات واصل الصناعة اللفظية وما شابه هذه الامور ·

تتضمن الرسالة مقدمة وخمسة وعشرين فصلاً وخلاصة ·

اما الفصول فقد بحث فيها صاحبها عن النثر قبل الاسلام وبعد الاسلام وفي القرن الرابع للهجرة وعن البلاغة في ذاك القرن وعن مصادر الصناعة اللفظية او التكلف في الكتابة وعن الحياة العقلية وعن المقامات وعن أحاديث ابن دريد وعن روايات الأغاني وعن الإخباريين والقُصّاص وعن تراجم ابن العميد والصاحب بن عبّاد وبديع الزمان والخوارزمي والتوحيدي وابن نباتة والخطيب والصابيْ وابي حسن الجرجاني وابن فارس والثعالبي وابي هلال العسكري وابن شهيد الاندلسي واحمد بن يوسف المصري والتنوخي ·

أبرز صفات هذه الرسالة بناء صاحبها على اصول برونتير (Brunetière) في مباحثه ، فمذهب (برونتير) في الأدب انما هو مذهب (التطور) فان (برونتير) لا يؤمن بمذهب التولد الذاتي في الأدب فالطريقة الفنائية في القرن التاسع عشر لم تظهر فجأة وانما هيئت من القرن الثامن عشر ·

وعلى هذه الأساليب جرى الدكتور زكي مبارك في مباحثه فالنثر العربي لم يخلق فجأة وانما العرب كان لهم قبل الاسلام نثر يفصح عن شرف نفوسهم وعن طبيعة احساسهم وانما آثار هذا النثر قد فقدت فقد كان قبل الاسلام أدب وفلسفة وفن فلا يتصور العقل ان ينفجر فجأة في جاهلية جهلاء لا يفكر احد منها في بلاغة او في عروض او في نقد أثر كالقرآن رائع الحسن ، فالدكتور زكي مبارك من هذه الناحية يخالف الدكتور طه حسين ويصرّح بهذه المخالفة ·

وكذلك المقامات لم تخلق فجأة وانما اقتبسها الحريري عن الهمذاني والهمذاني عن ابن دريد صاحب الأحاديث وعلى هذه الصورة انتقلت أحاديث ابن دريد على الأيام من طور الى طور حتى طبعها الهمذاني والحريري من بعده بطابع خاص ·

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا شك في ان أدب العرب في أمثال هذه المباحث يدخل في طور خاص فلا يأتي عليه حين من الدهر الاّ وأوائله مرتبطة بأواخره بحيث يصبح سلسلة محكمة الحلقات .

على اننا اذا أردنا ان نصل الى هذه الخواتيم المحمودة لزمنا ان نوازن بين الآثار فاذا ذكرنا مثلاً ان اصل المقامات مقتبس عن احاديث ابن دريد وجب علينا ان ننبه على مواطن الاقتباس حتى يتبين لنا كيف انتقل هذا النوع الأدبي من حال الى حال او من طور الى طور على الأيام ولئن تعذّر علينا ان نقايس بين آثار اللغة الجاهلية واللغة الاسلامية لفقدان المصادر الجاهلية فما يتعذر علينا ان نقايس بين الآثار التي جاءت بعد الاسلام حتى ندرك مختلف أطوارها وانما الرأي المجرّد غير المبني على امثال هذه الموازنات والمقايسات لا يفعل فعلته في العقول .

« شفيق جبري »